مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

فكرة الموت فى فلسفة ماركوس أوريليوس

د. حمادة أحمد على
مدرس الفلسفة اليونانية
بكلية الآداب بقنا

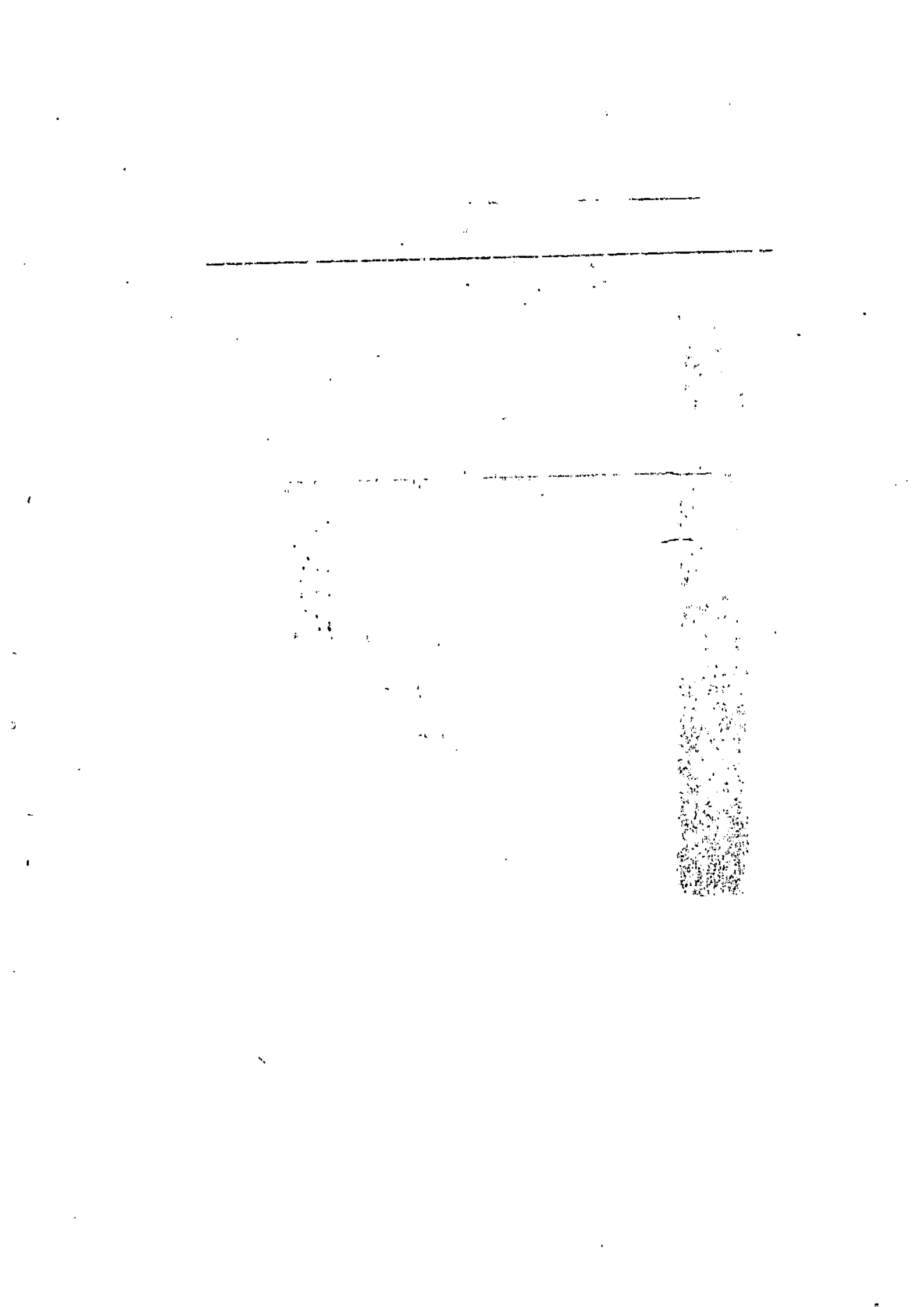

مقدمة

يهتم علم الأخلاق بدراسة الموت ، من حيث هو توقف للوجود الإنسانى فى كافة صوره وأشكاله الفسيولوجية والسيكولوجية والروحية. ويثير الموت العديد من المشكلات الأخلاقية التى تهتم بالطريقة التى يجب علينا أن نحيا وفقا لها، وهذه الطريقة تعتمد على مدى اعتقادنا بالمسئولية الأخلاقية على أفعالنا التى اقترفناها ؟

ومن المعروف أن المدارس الفلسفية اليونانية جميعا كانت تستهدف رسم طريق السعادة فى الحياة الدنيا والآخرة لأتباعها. ولما كانت الحياة والموت وجهين لعملة واحدة هى الوجود الإنسانى على هذه الأرض ونتائج ذلك الوجود هو المصير، فإن الاهتمام بقضية الموت هو فى الواقع تفكير فى أسلوب الحياة وغايتها وتوابعها. وكان لكل مدرسة فلسفية إغريقية اتجاهها الخاص فى تفسير طبيعة الروح ومصيرها بعد الموت، وهو اتجاه يتناغم مع موقف هذه المدرسة أو تلك من ماهية الطبيعة نفسها وماهية النفس الإنسانية تبعا لذلك. وكان الهدف الرئيسى فى هذا التفكير الفلسفى هو تحرير البشر من الخوف الغريزى من الموت الذى يكبل الإنسان ويقيد حركته ويحبسه ويشل لديه الإرادة فى الانطلاق. فقد ذهب الأبيقوريون مثلا إلى القول بأنه مادامت الروح مكونة من مادة أى من ذرات فإنها تفنى مع فناء الجسد، ومن ثم فلا حياة أخرى بعد الموت، لا ثواب ولا عقاب، فلماذا الخوف إذن من الموت ومن ألوان العذاب الأبدى التى حفظتها الأساطير البالية؟

وتكمن أهمية الدراسة فى أنها تركز على قضية الموت عند الأمبراطور ماركوس أوريليوس التى صاغها فى كتاب التأملات الذى كتبه فى زمن الحرب، والمعروف أن حياة الحرب تعنى اليأس، وهذا ما جعل موقف ماركوس اوريليوس مزيجا بين الرواقية والأبيقورية، حيث دعت كليهما إلى سعادة البشر أو الطمأنينة أو ما يدعى بالأتركسيا. ولبيان هذه الأهمية اتبعنا المنهج التحليلى المقارن.

وقد قسمت الدراسة إلى مقدمة وأربعة عناصر وخاتمة، أما المقدمة فقد طرحنا فيها التعريف بالدراسة وأهميتها والمنهج المستخدم فيها والخطة المتبعة، وأما العنصر الأول بعنوان " الرواقية والموت" وفيه نعرض لموقف الفكر الرواقى من

فكرة الموت فى مقابل رؤية الفكر الأبيقورى له، وأما العنصر الثانى وهو بعنوان " طبيعة الموت" وفيه نطرح تصور ماركوس أوريليوس لماهية الموت، وفكرة طـول العمر وقصره وعدم تفرقة الموت بين الملك والعبد، وان قصر العمر وطوله سيان، أما العنصر الثالث وهو بعنوان "الفلسفة والموت" حيث يرى ماركوس أوريليوس أن الفلسفة هى المنهج الوحيد لتخطى المخاوف من الموت، أما العنصر الرابـع وهـو بعنوان " خلود الروح" ونطرح فيه موقف ماركوس أوريليوس مـن قـضية خلـود الروح، وأما الخاتمة فقد لخصنا فيها أهم النتائج التى انتهت إليها الدراسة.

فكرة الموت عند الرواقية :

لم يكن التفكير فى الموت في الحضارة اليونانية على نمط واحد، بل اختلف باختلاف الأفكار الفلسفية والمعتقدات الدينية، فبينما كان الموت عند بعض اليونانيون شيئاً رهيباً ومقيتاً، نجده عند الأورفية والفيثاغورية وأفلاطون خلاصاً وتحرراً للروح من سجن الجسد، وفي حين رأى سقراط عدم خوف الإنسان من الموت والترحيب به تحدث أفلاطون عن الثواب والعقاب اللذان ينتظران النفس بعد الموت، وفـى حـين يرى أرسطو الموت طريقاً للخلود، رأى أبيقور أن الموت هو فنـاء تـام للوجـود الإنساني، وهذا يدلل على أن فكرة الموت لم تكن موحـدة بـل تعـددت واختلفـت وتحددت على وفق تعدد واختلاف الأفكار الفلسفية والمعتقدات الدينية.

وقد تواتر أن الموقف الرواقـى دعـوة مفتوحـة للانتحـار، والواقـع أن الرواقيين قد اعتبروا الموت من الأشياء الوسطى Media أو Idifferentia بمعنى أنها أشياء ليست خيرة ولا شريرة فى ذاتها، ولا هى حسنة ولا سيئة ولكنها بين هذا وذاك، بمعنى أنها يمكن أن تكون أمورا طيبة وجيدة ويمكن أن تكون نقيض لـذلك. فالموت إذن مثل الفقر والثراء والألم والمرض أمور وسط وليست مهمة فـى حـد ذاتها.[1]

---

1 – رينيه هوفن: الرواقية والرواقيون إزاء مسألة الحياة فى العالم الآخر، ترجمة د.لوفيليا فايز رياض، مراجعة د. أحمد عتمان، الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٦.

ويصنف الرواقيون الحياة والموت من الناحية المعنوية ضمن الأشياء غير المهمة، ولكننا نعلم أنه منذ عهد زينون اختفت حدة هذه العقيدة بعض الشئ، على الأقل بالنسبة للألفاظ، حيث يقر الرواقيون من بين الأشياء غير المهمة أشياء مفضلة وأشياء منفرة، ولكننا نجد فى قائمة الأشياء المفضلة، الحياة، وفى عداد الأشياء المنفرة، الموت، ومن الناحية المادية نجد الموت هو عبارة عن انفصال الجسد والروح، وهو تعريف مستعار من أفلاطون.(٢)

وقد ذهب الرواقيون إلى أن الحياة ذاتها من جملة الأشياء المحايدة، وقد يكون الانتحار مبررا إذا ما خسر الإنسان الحيادية المفضلة تجاه الأشياء التى سيعانى من خسارتها إذا ما بقى فى الحياة، فالسجن والجوع والمرض والكرامة والخزى جميعها تجعل الإنسان يؤمن بأن ثمن البقاء فى الحياة ثمنا باهظا.(٣)

ولا يعد الانتحار بمعضلة عند الرواقيين طالما سيضحى الإنسان بحياته مقابل العقلانية التى كانوا يبتغونها، ويعنى ذلك أن الانتحار مشروع لو قبل العقل هذه الفكرة واقتنع بمبرراتها وكانت هى المبرر الوحيد من بين الأحوال المتغيرة (٤) لذلك يرى سينكا أنه حين يوجهنا العقل لإنهاء حياتنا يجب أن نتروى، فالرجل الحكيم لا يخرج من الحياة سريعا بل خروجا ملائما، فالموت يعلو كل القوى، ومن الصعب أن نقرره بهذه السهولة، وإن كان الموت من قبل الإله فهو سجن أبدى هو القبر، فالموت لا يأتى من قبل الإله فحسب بل بالانتحار أيضا.(٥) واعتقد أن سينكا هنا يفرق بين نوعين من الموت، الموت الذى يأتى جبريا من قبل الإله وليس للإنسان اختيار فيه وفى هذه الحالة يكون الموت عذاب مقيم، والأخر وهو الموت الذى يأتى

٢- نفس المرجع: ص٥٠

٣- د. عبد العال عبد الرحمن: دراسات فى الفكر الفلسفى والأخلاقى عند فلاسفة اليونان،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٤، ص٧٩.

4-Furely David: from Aristotle to Agustine, Routlede, London, 1988, p241.

5 - Inwood Brad: reading Seneca, philosophy at Rome, Clarendon Press, Oxfored,2005, p312.

بناء على اختيار فردى مبنى على العقل والتروى. والأمر فى مجمله قد اتبع فيه الرواقيون سقراط والكلبيون والقورنيائيون والأبيقورية.

وكان الرواقيون فى وضع أفضل من الأبيقوريين للتعامل مع المشكلات التى تواجه الإنسان، وهكذا فإن مشكلة الخوف من الموت التى شغلت تدريجيا حيزا كبيرا فى تفكير الرواقيين كما هى عند أبيقور ولوكريتوس أمكن من حيث المبدأ الرد عليها من زاويتين: على الصعيد النفسى وذلك بعد اللامبالاة ، وعلى المستوى الميتافيزيقى وذلك عبر نظرة وحدة وجود إلى العالم، والأمل فى عناية إلهية متسامحة، وربما كذلك عبر مبدأ العود الأبدى -على الأقل فى الحالات التى يعتنق فيها هذا المبدأ. (٦)

فقد كانت نظرة أبيقور للموت ورأيه فيه هو بمثابة علاج للنفس وتخفيف من حدة الخوف منه ومن العالم الآخر. إذ أن الخوف من الموت عنده هو العقبة الكبرى في سبيل السلام العقلى وهو يرى أن الوجود النفسي- الجسمي سينعدم نهائيا بالموت. فإن النفس حينما يحضرها الموت لا تنسحب من البدن من عضو إلى آخر بالتدريج حتى يتم انطلاق جميع قواها منه – كما هو الرأي الشائع – بل الذي يحدث هو إن هذه القوى تأخذ في التناقص في جملتها إلى أن تتلاشى نهائيا. ومن ثم فهي لا تخرج من البدن لكن تحتفظ بصورتها الكاملة خارجه بل يكون الموت تعجيلاً بفنائها التام مع فناء البدن (٧).

والنفس جسم حار لطيف يوجد مع البدن ويفنى بفنائه أي أنه يشارك البدن في مصيره . ومما يدل على ذلك عند أبيقور، تأثير البدن في النفس في حالات الإغماء والغيبة وغيرها فإذا ما أعتل البدن كان لذلك أثره العميق في النفس وحالاتها فقد كان أبيقور يريد تخليص الإنسان من الخوف من الموت وما قيل عن الحياة بعد الموت فقال إن النفس ذاتها ليست إلا ذرات تتفرق عند الموت، ويقول أنه لا يصح

٦- جاك شورون: الموت فى الفكر الغربى، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، العدد٧٦، الكويت، ١٩٨٤، ص٧٧.

٧- نفس المرجع ، ص ٢٦٥ .

أن نفكر في ما بعد الموت، وهذا يجعلنا سعداء ويحررنا من الخوف من الموت. وبما أن النفس تنحل بعد الموت لذلك فإن الموت لا يعنينا في شيء. إن ما جذب أبيقور للقول بفناء النفس مع الجسم هو التخلص من جميع المخاوف الدائرة حول معاناة النفس وعذابها بعد الموت وجعلها مخاوف لا أساس لها(٨).

ويعنى ذلك على حد فلسفة أبيقور أنه ليس على الإنسان إلا أن يبحث كيف يعيش سعيداً في أيامه التي يعيشها على ظهر الأرض، وليس الموت شراً، لأننا إذا متنا فلا نكون وإذا كنا فلا موت فإذا جاء الموت فلا شعور لأن الموت نهاية الشعور ومن الحكمة أن لا نخاف مما نعلم أنه عندما يجيء لا نشعر. فلا توجد صلة بيننا وبين الموت لأننا لن نكون موجودين في اللحظات الأخيرة من حياتنا فالموت عنده فناء تام للوجود الإنساني (٩).

إذ يقول: ألا فلتعتد الاعتقاد بأن الموت لا يعني شيئاً بالنسبة لنا، فالخير كله والشر جميعه يكمنان في الحس، لكن الموت حرمان من الحس، من هنا فإن الفهم الصحيح هو إن الموت لا يعني شيئاً بالنسبة لنا ... حيث أنه طالما كنا موجودين فإنه غير موجود، ولكنه حينما يحل فإننا لا نكون موجودين. وهكذا لا يثير القلق في الأحياء ولا الموتى، فهو بالنسبة للأوائل ليس موجوداً، أما للأخرون فإنه لا يصبح لهم وجود حينما يحل (١٠) ، تلك هي الحجة الأبيقورية الشهيرة ضد الخوف من الموت

ويمكن أن نختزل الموقف الرواقى فى الخوف من الموت فى ابكتيتوس وسينكا وهما ليس حصرا لهذا الموقف الممتد عبر ثلاثة مراحل فى الفكر الرواقى بل

---

(٨) د. محمد على أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفى، أرسطو والمدارس المتأخرة، الجزء الثانى، الطبعة الأولى، دار لمعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩٩ ، ص ٢٦٤. وإنظر أ. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، الطبعة الخامسة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٠، القاهرة ص ٢١٨ .

(٩) أبو ريان: نفس المرجع، ص٢٦٥ .

(١٠) جاك شورون : الموت في الفكر الغربي ، ص ٦٧ .

هما نموذجان بجانب ماركوس أوريليوس محل الدراسة. وقد ذهب ابكتيتوس إلى أنه ليس هناك شر فى الكون: كما أن العلامة لا تقاوم لكى نضل الطريق إليها، فكذلك ليس هناك شئ شرير بذاته فى العالم " هات ما تشاء وسأحوله إلى خير، المرض والموت والعوز واللوم والكدح من اجل الحياة، وستتحول تلك الامور جميعا بإشارة من عصا هرمس إلى مزايا، ما الذى ستصنع من الموت؟ أى شئ أخر غير حلية تزدان بها، أى شئ غير إظهارك من خلال الفعل أى رجل ذلك الذى يتبع إرادة الطبيعة. ويقول أيضا ابكتيتوس ليس الموت شيئا مفزعا" وإلا لبدا كذلك لسقراط، لكن الفزع يكمن فى مفهومنا عن الموت أى أن هذا المفهوم هو المفزع، فليس الموت ألم أو الألم هو الشئ المخيف وإنما خشية الألم أو الموت" (١١)

ويقول ابكتيتوس " أسالكم أين يمكننى الهرب من الموت؟ حددوا لى المكان، اشيروا إلى الناس الذين يتعين أن أمضى بينه والذين لا ينقص عليهم الموت، حددوا لى رقية تحجبه،إذا لم يكن لدى شئ من هذا فما الذى تريدون منى ان أصنعه؟ ليس بمقدورى الهرب من الموت: إلا ألوذ بالهرب من خشيته؟ أترانى أموت فى خوف وقد أخذتنى الرعدة" (١٢)

وتعد فلسفة ابكتيتوس فلسفة إذعان وبطولة ساكنة، فهى ليست فلسفة لليأس لأن صاحبها أحب الحياة والبشر، وربما كذلك لأنه فارق الرؤية الرواقية الأصيلة للعالم، وهو يتحدث عن الله على نحو يتجاوز كثيرا الموقف القائم على وحدة الوجود بصورة خالصة، وعلى الرغم من أنه لا يذكر ما الذى سيكون عليه مصير النفس بعد الموت إلا أنه يتحدث عن رغبتها فى العودة إلى وجود أفضل مع الله على نحو يجعل الأمر يبدو كما لو أنه يتوقع ان يجد هذه الرغبة متحققة، ومما له مغزاه أن ماركوس أوريليوس كان ينقل عن ما يفيد ولعه بالحديث عن الإنسان " كنفس صغيرة تحمل جثة".

---

١١ - جاك شورون : ص٨٣

١٢- جاك شورون: ص٨٣

ويذهب سينكا إلى القول بأن البكاء عند الميلاد والخروج إلى الوجود الأرضى يمكن غفرانه: "فأنت تصل إلى الوجود بلا معرفة أو تجربة" ولكن حينما يحين أوان "الميلاد الجديد" فإننا ينبغى أن نتطلع إليه بلا تردد لأن تلك هى الساعة الحاسمة التى هى نهاية الجسد لكنها ليست نهاية النفس.

وهذا الاقتناع لا يسفل عملية الموت فحسب وإنما يضمن الحرية كذلك " إن التفكير على هذا المستوى لا يسمح لشئ خسيس بأن يتواجد فى النفس، لا شئ يتسم بالوضاعة، لا شئ يتصف بالقسوة.... والرجل الذى يصف الخلود نصب عينيه لا يتراجع خوفا من جيش ولا يفزعه إطلاق النفير ولا تخيفه التهديدات. فكيف يمكن للإنسان ألا يكون حرا إذا كان يأمل فى الموت؟ لم يعش سنيكا _ وهذا ما ركز عليه نقاده مرارا منذ العمر الذى عاش فيه وفقا لتعاليمه الخاصة القائمة على الحياة البسيطة المكرسة للفلسفة، لكنه مات بهذه التعاليم.[١٣]

طبيعة الموت:

يقول ماركوس أوريليوس" الموت انعتاق من استجابة للحواس، ومن خيوط دُمى الرغبة، ومن العقل التحليلى، ومن خدمة اللحم (١٤) وقد يعنى ذلك أن الموت خلاصا للروح من سجن الجسد كما يرى الفيثاغوريون وأفلاطون، ولا يعنى ذلك أن هناك انتقال من حال إلى حال بالموت، أعنى أن النص لم يعلن وجود ثواب أو عقاب بعد الموت لأن الموت ما هو إلا انعتاق أو خلاص للروح من متطلبات الجسد ومن شواغل الفكر.

والموت كما يرى ماركوس ما هو إلا وظيفة طبيعية وهو يقول "وما الموت؟ إن من يتأمل الموت فى ذاته، ويعمل فيه التحليل العقلى ليجرده مما يرتبط به من دلالات سوف يخلص إلى أنه لا يعدو أن يكون وظيفة طبيعية. ومن يرتاع

١٣- جاك شورون: ص٨١

١٤ – ماركوس أوريليوس: التأملات، ترجمة د. عادل مصطفى، مراجعة د. أحمد عتمان، دار رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠، ف٦-٢٨-ص١٢١.

لوظيفة من وظائف الطبيعة فهو طفل غرير. ليس الموت وظيفة طبيعية فحسب بل إنه أيضا لخير الطبيعة وصالحها" [١٥]. وإن كان الموت وظيفة طبيعية فقد يعنى ذلك ان الموت حالة من التحول تحدث فى الطبيعة لذلك يقول " تذكر دائما قول هيراقليطس" موت التراب هو أن يصبح ماء، وموت الماء ميلاد الهواء، وموت الهواء هو النار، وعود على بدء" [١٦]

وما سبق قد دعى ماركوس ليرى الموت سرا قد يتساوى والميلاد، والإنسان جزءا من الطبيعة وهو خاضع لقوانينها، ومن قوانين الطبيعة الكون والفساد، فإن ما يكون لابد وأن يفسد، وكذلك يقول " الموت شأنه شأن الميلاد، سر من أسرار الطبيعة: تضام، ثم انحلال، للعناصر نفسها. لا عار فى الأمر بكل تأكيد: فلا شئ فيه مناقض لطبيعة الكائن العاقل، أو مناقض لمبدأ تكوينه.[١٧]

والموت كما فى النص السابق ليس عيبا فى الإنسان لأنه من طبيعته، وليس مضادا للطبيعة لأنه يتفق مع الطبيعة، وليس للإنسان خيار فيه، لذلك يقول "وكل ما ينفع العالم فهو حسن وفي إبانه. لذا فلا بأس على الإطلاق بأن تنتهى حياة كل منا، فلا النهاية عيب ولا اختيار ولا هى ضد الصالح العام، بل هى خير،إذ تقع فى التوقيت الملائم ل"الكل"،وتصب فى صالحه، وتنسجم معه، وكذلك يمشى المرء بعون الرب إذا مضى باختياره ووجهته على طريق الرب. [١٨]

ويرى ماركوس أن الموت لا يستثنى أحدا فالغنى والفقير ميتان بلا استثناء وكذلك العظيم والوضيع والملك والعبد وهو يقول " الموت سوّى بين الإسكندر الأكبر وسائس بغاله، فإما أنهما استردا إلى نفس المبدأ المولد للعالم، وإما تشتتا معا بين ذرات الكون". [١٩] وهذا النص بجانب ما يقرره من أن الموت لا يفصل بين الناس

---

١٥ – نفس المصدر: ف ٢–١٢– ص٤٩.

١٦ – نفس المصدر: ف٤–٤٦– ص٨٥.

١٧ – نفس المصدر: ف٤–٥– ص٧٢.

١٨– نفس المصدر: ف١٢–٢٣– ص٢٤٧

١٩– نفس المصدر: ف ٦–٢٤– ص١٢٠

فإنه لا يقرر أيضا حال الإنسان بعد الموت أعنى مدى الثواب والعقاب الذى يجده الإنسان، ويعبر عن حالة التردد عند ماركوس بين الفكر الرواقى الذى يؤمن بالعود الأبدى وبين الفكر الأبيقورى الذى يؤمن بحالة تشتت الكائنات على هيئة ذرات.

وفى إطار عدم استثناء الموت أحدا يقول ماركوس" اذكر دائما كم من الأطباء ماتوا بعد أن عقدوا الحاجين فوق مرضاهم، كم من المنجمين ماتوا بعد أن تنبأوا بموت غيرهم بخيلاء عظيمة، وكم من الفلاسفة بعد مداولات لا نهاية لها عن الموت والخلود، وكم من الطغاة بعد أن تسلطوا على حياة الناس بغطرسة وحشية كما لو كانوا هم أنفسهم مخلدين فى الأرض، واذكر أيضا كم مدن بأسرها قد زالت: هيليكى، بومبى، هيركيو لانيوم، وغيرها مما لا يحصى، وأضف إلى الإحصاء كل أولئك الذين عرفتهم، واحدا تلو الأخر. يمشى أحدهم فى جنازة الأخر، ثم ما يلبث أن تلفه الأكفان بدوره يشيعه آخر، وكل ذلك فى زمن وجيز. وصفوة القول أن انظر دائما كم هى قصيرة رخيصة حياة الإنسان. بالأمس كان بذرة وغدا مومياء أو رمادا.عليك إذن أن تقضى هذه الكسرة الضئيلة من الزمان فى انسجام مع الطبيعة، وغادرها راضيا، مثلما تسقط زيتونة حين تبلغ النضج، مباركة الأرض التى حملتها، وشاكرة للشجر التى منحتها النماء.(٢٠)

وحتى من يزعمون أنهم قد يشفون الناس يموتون، وكذلك من يتنبأون بحياة وموت الناس يموتون وكذلك الطغاة والفلاسفة وهو يقول " شفى أبقراط مالا يحصى من الأمراض ثم مرض هو نفسه ومات. تنبأ المنجمون الكلدانيون بموت الكثير من الناس ثم لم يلبث كل منهم أن وافته منيته. الأسكندر، وبومبى، ويوليوس قيصر، أفنوا مدنا بكاملها يوما بعد يوم، وذبحوا عشرات الآلاف من الفرسان والرجل فى ميادين المعارك. غير أن أجلهم هم أيضا قد جان لكى يفارقوا الحياة. طويلا ما تأمل هيرقليطس فى الحريق النهائى للعالم، غير أن ماء الاستسقاء ملأ بطنه ومات مكسوا

٢٠ – نفس المصدر: ف٤-٤٨- ص٤٨.

بكمادة من روث البقر. مات ديمقريطس بالقمل، وقتلت سقراط حشرات من صنف أخر.[٢١]

وتتكرر النصوص على السياق السابق ولكن النص الذى يذكر فيه ماركوس فناء الكل وخاصة العظماء وزوالهم قد جاء نصا بليغا وهو يقول فيه " دفنت لوكيلا فيروس، ثم ما لبثت لوكيلا أن ماتت ودفنت، وسيكوندا دفنت ماكسيموس، ثم ماتت هى بدورها..كذلك إيتيخانوس وديوتهوس، وأنطونيوس وفاوستينا. القصة هى القصة دائما وأبدا. مشى كيلير فى جنازة هادريانوس، ثم مضمى فيما بعد إلى قبره. أين هم الآن، أين تلك العقول الذكية، سواء المتنبئون أو المتزمتين. لا شك أن خاركس وديميتريوس ويودايمون وأمثالهم كانوا عقولا ذكية، ولكن الكل زائل، والكل ميت منذ زمان، البعض أختفى حتى من الأسطورة.[٢٢]

وقد ينتهى تأمل موت العظماء أو تلك العقول الذكية بحكمة عامة يؤكد فيها ماركوس مفهوم العود الأبدى والدوران الكونى للأشياء ويمزج هذا التصور الرواقى بالتصور الابيقورى وهو تحول الأشياء إلى ذرات، وهو يقول" تأمل مثلا عصر فيسباسيانوس فسوف ترى الأشياء نفسها: ناس تتزوج، وتنجب أطفالا، ويدركها المرض، وتموت، وتقاتل، وتعيد، وتتاجر، وتفلح الأرض، وتجامل، وتتدافع، وتشك وتتآمر، وتتمنى موت الأخرين، وتتذمر على نصيبها المقسوم، وتقع فى الحب، وتكنز المال، وتتوق إلى منصب القنصل والملك، والآن انقضت حياتهم وزالت. ثم عرج على زمن ترايانوس، سترى الأشياء نفسها، والحياة انقضت أيضا. وانظر كذلك فى الأزمنة الأخرى، والأمم كلها فى الحقيقة، وسترى حيوات كثيرة من الكدح تنتهى بسقوط سريع وتحلل إلى العناصر. وأهم من كل شئ أن تستعرض فى ذهنك أولئك الذين رأيتهم بنفسك فى صراعات فارغة، لا يسلكون وفقا لفطرتهم الطبيعية ولا يتمسكون بها ولا يرضون عنها. وعليك فى هذا المقام أن تأخذ كل شئ بقيمته

---

٢١ – نفس المصدر: ف٣-٣- ص٥٧.

٢٢ – نفس المصدر: ف -٢٢ – ص١٦٤.

وحجمه، فبذلك لن تبتئس إذا عبرت على التوافه، ولم تعرها وقتا أطول مما تستحق".[٢٣] وإن كان هذا النص يضع حكمة جاءت من تأمل ماركوس للحياة فهذا النص يرسى فى اعتقادى معيار أخلاقيا للأمم مبنى على فكرة الوفاق مع الطبيعة، ناهيك عن القانون الذى قد يحكم الحضارة وهو النشوء والتكوين والانحلال.

وقد قدم لنا ماركوس نصوصا أخرى يوضح فيها ماهية الموت وطبيعته ويربط فيها تصور الناس للأعمار والموت ويرى فيها أن طول العمر متساوى مع قصره فالنهاية محتومة وهو يقول " حتى لو قدر لك أن تعيش ثلاثة آلاف عام، أو عشرة أضعاف ذلك، فاذكر دائما أن لا أحد يفقد أى حياة غير تلك التى يحياها، أو يحيا أى حياة غير تلك التى يفقدها. ينتج من ذلك أن أطول حياة وأقصرها سيان، فاللحظة الحاضرة واحدة للجميع، ومن ثم فإن ما ينقضى متساو أيضا. يتبين إذن أن الفقدان إنما هو فقدان لحظة لا أكثر. ذلك أن المرء لا يمكن أن يفقد الماضى ولا المستقبل، فكيف يمكن أن يُسلب ما ليس يملك تذكر إذن هذين الشيئين: (١) أن الأشياء جميعا هى ما هى منذ الأزل، تبدأ وتعود دواليك، وسيان أن يرى المرء نفس المشهد لمائة عام أو مائتين أو مالانهاية من الأعوام (٢) أن ما يسلب من المعمر هو ما يسلب من أقصر الناس عمرا _ فليس غير اللحظة الحاضرة ما يمكن أن يسلب من الإنسان. فإذا صح أن هذه اللحظة هى كل ما يملكه فمن غير الممكن أن يفقد ما ليس يملك.[٢٤]

ويقول أيضا " ثمة طريقة سوقية على أنها مسعفة لك فى أن تضع الموت فى حجمه الطبيعى، وهى أن تستعرض فى ذهنك قائمة بأولئك الذين تشبثوا بالحياة فترة طويلة. ماذا ربحوا من ذلك أكثر مما ربح من مات مبكرا؟ من المؤكد أنهم يرقدون الآن جميعا فى قبورهم: كايديكيانوس، فابيوس، يوليانوس ليبيدوس، وأمثالهم جميعا من الذين ساروا فى جنازات كثيرة ثم جاءت جنازة كل منهم. ما أقصر المسافة بين

---

٢٣ – نفس المصدر: ف٤-٣٢- ص٨٠.

٢٤ – نفس المصدر: ف٢- ١٤- ص٥١.

الحياة والموت. انظر أى عناء نحتمله فى هذه المسافة، وأية صحبة تكتنفنا فيها ومع أى وصنف من الناس، وفى أى جسد واهن نقطعها بجهد جهيد. ليست الحياة إذن بالشئ الثمين. انظر إلى هول فجوة الماضى من ورائك وإلى اللانهاية الأخرى من أمامك. ما الفرق من هذا المنظور بين رضيع عاش ثلاثة أيام ونستور(*) الذى عاش ثلاثة أجيال. (٢٥)

ومهما طال العمر فهل يعنى ذلك خلود الذكر؟ وماذا يجدى خلود الذكر للميتين؟ النهاية دائما محتومة وإجاباتها عند ماركوس هى " لا يدرك المتلهف على المجد وبقاء الذكر أن كل واحد من مخلدى ذكره سوف يموت هو نفسه عاجلا جدا، وكذلك سيكون حال الاخلاف جميعا إلى أن تنطفئ ذكراه تماما فى انتقالها عبر أناس يعجزون ببلاهة ويفنون. وحتى لو افترضنا خلود من يذكرونك وخلود ذكراك فماذا يجديك من ذلك؟ ولست أعنى مجرد جدواه للموتى بل للأحياء أيضا – ما جدوى المديح (إلا أن يكون ذا نفع إجرائى معين)؟ لكأنى بك نرفض هبة الطبيعة التى أودعتك إياها والتى تعتمد على أقوال الأخرين، وتتشبث بشئ أخر.(٢٦) فسرعان ما تزول الأشياء جميعا، فى العالم تزول الأجساد نفسها وفى الزمن تزول ذكراها. ما هى الأشياء المحسة وبخاصة تلك التى تغرى باللذة أو تروع بالألم أو تزدهى ببريق الغرور_ كم هى حقيرة تافهة زائلة وميتة، عبر لمن يعتبر. ومن يكونون أولئك الذين تتوقف سمعتنا على أحكامهم وأصواتهم؟

وقد وضع ماركوس قارئ كتابه وهو التأملات أما تجربة عملية ليبين أن طول العمر أو قصره سيان، وهذا المنهج ليس غريبا على الفكر الرواقى على نحو خاص أو فلسفات العصر الهيللينستى على نحو عام وهو يقول " كما لو أن إلها أخبرك أنك ستموت غدا أو بعض غد على الأكثر فلم تعلق أهمية على فرق يوم

---

* – نستور: هو ملك بيلوس وحكيم الأغريق فى حرب طروادة الذى حكم ثلاثة أجيال .

٢٥ – نفس المصدر: ف٤–٥٠– ص٨٨.

٢٦ – نفس المصدر: ف٤–١٩– ص٧٥.

واحد (ما لم تكن مفرطا فى الهلع، فما أضيق الفرق) كذلك ينبغى عليك ألا تتصور فارقا يذكر بين أن تموت بعد سنين طويلة وأن تموت غدا.(٢٧)

والنتيجة الحتمية عند ماركوس من تأمل مسألة طول العمر وقصره والموت هو حكمة أخلاقية مفادها كما يقول " لا تتصرف كما لو كنت سوف تعمر آلاف السنين. الموت يترصدك، فما دمت تعيش، ومادام بإمكانك.. كن خيرا.(٢٨)

ونخلص من الحديث عن طبيعة الموت بنتيجة عملية وهى عدم الخوف من الموت فالأذى لا يكمن فى الموت بل فى العقل الذى يتفكر فيه، لذلك يقول" لا أذى لك يقبع فى عقل غيرك، ولا حتى فى أى تبدل أو تغير لغطائك الجسدى، أين إذن يقبع الأذى؟ فى ذلك الجزء منك الذى يضطلع بتكوين الأحكام على الأذى. كف عن الحكم بأن بك أذى تكون قد سلمت منه. ولو أن أقرب شئ منه وهو جسدك، تعرض لسكين أو كى أو ترك يتقيح أو يموت – فإن الملكة التى تحكم هذه الأشياء ينبغى أن تظل هادئة. أى ينبغى ألا تعتبره خيرا ولا شرا ذلك الذى يمكن أن يصيب الأشرار والأخيار على حد سواء ذلك لأن ما يمكن أن يصيب الإنسان بغض النظر عن مدى إذعانه للطبيعة ليس بحد ذاته متفقا مع الطبيعة أو مضاد لها.(٢٩)

ويقول أيضا "ربما تغادر الحياة فى أية لحظة. فلتضع هذا الاحتمال نصب عينيك فى كل ما تفعل أو تقول أو تفكر به. غير أن مغادرة دنيا البشر ليست بالأمر المخيف إذا كان الآلهة موجودين، فما كان الآلهة ليضيروك فى شئ. أما إذا كان الآلهة غير موجودين، أو كانوا لا يلقون بالا بالبشر، فما قيمة الحياة لى فى عالم خلو من الآلهة أو خلو من العناية؟ غير أن الآلهة موجودون حقا، ويلقون بالا لبنى الإنسان، ولقد جعلوا بمقدور الإنسان أن يجتنب السقوط فى الشرور الحقيقية. (٣٠)

٢٧- نفس المصدر: ف٤-٤٧- ص٨٥.

٢٨- نفس المصدر: ف٤-١٧- ص٧٥.

٢٩- نفس المصدر: ف٤-٣٩- ص٨٣.

٣٠ – نفس المصدر: ف٢-١١- ص٤٨.

إذا يتطلب التفكير فى الموت معرفة أن الإله موجود ويعتنى بالعالم، وطالما أن الأمر كذلك فلا خوف من الموت، والنتيجة على هذا أخلاقية وهى العيش وفقا للطبيعة، وماذا سيحدث إن خفت الموت فالنتيجة كما يقول ماركوس " ستمت وشيكا، وما زلت لا تتمتع بوضوح الفكر وصفاء النفس، ولم تتحرر بعد من الخوف من الأذى الخارجى، وما زلت غير ودود تجاه الجميع، وغير موقن بأن العدل هو ملاك الحكمة" (٣١)

الفلسفة والموت عند ماركوس أوريليوس

يعد كتاب " التأملات" مجموعة تأملات فى الموت ولا شئ آخر على وجه التقريب، فقد أصبح تأمل النشاط الإنسانى بالنسبة له كشفا للزوال السريع للموت وبرهانا مستمرا على التفسخ والتحلل، ولم تكن رؤية الحياة على أنها نوع من الموت جوهر فلسفته فحسب، وإنما جوهر حياته اليومية كذلك. ويقول د. عثمان أمين " ان فكرة الموت عند ماركوس أوريليوس مبدءا هاديا للأخلاق، وكانت أخر رسالة للفيلسوف الأمبراطور شبيهة برسالة الفيلسوف العبد (ابكتيتوس) فى قوله " اصبر وتزهد". (٣٢)

ربما لم يكن هناك من بين الفلاسفة الأقدمين من يعى مثل هذه الصورة المؤلمة وهى القابلية للفناء والطابع المؤقت للأشياء كهذا الفيلسوف الأمبراطور، فالموت يلقى ظلاله على نظرته بأكملها للعالم، ويمتد فيتجاوز المصير الفردى وصولا إلى مصير البشرية، والقانون الأسمى للتاريخ من منظوره هو زوال العظمة الأرضية، فيشير باستمرار إلى سقوط الحكام والأمبراطوريات العظيمة وليس الموت- على نحو ما كان بالنسبة للرواقيين الآخرين _ محور التأمل الفلسفى

---

٣١ - نفس المصدر: ف٣-٣٧- ص٨٢.

٣٢ - د. عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١، ص٢٦٧.

كحدث تقاس بالنسبة له العظمة الأخلاقية للحياة وإنما أصبح معيارا لكل حدث ولكل فعل (٣٣)

وليست الفلسفة عند ماركوس أوريليوس سبعيا وراء المعرفة، وإنما هى القدرة على النظر للحياة والموت بشكل فلسفى، وهو يكرر كثيرا الحاجة إلى قبول الإنسان مصيره باعتباره موجودا أخلاقيا فيقول: " أيها الإنسان، لقد كنت مواطنا فى هذه الدولة العظيمة أعنى العالم فأى فارق بالنسبة لك إذا كان ذلك لخمس سنوات أو لثلاث؟ ذلك أن ما يتوافق مع القوانين يعد عادلا بالنسبة للكافة، أين تكمن الصعوبة إذن إذا لم يقم طاغية أو قاض ظالم بنفيك من الدولة وإنما قامت بذلك الطبيعة التى جلبتك إليها؟ إن الإمر ذاته يشبه ما يحدث فيما لو أن قاضيا قام بتشغيل ممثل قد طرده من فوق خشبة المسرح، لسوف تحسن القول : " لكننى لم أكمل الفصول الخمسة وإنما قمت بأداء ثلاث منها فحسب" غير أنه فى الحياة تشكل ثلاثة فصول الدراما بأسرها فما سيغدو دراما كاملة غنما يحدده ذلك الذى كان يوما السبب فى تأليفها، والذى غدا الآن السبب فى تفككها، لكنك لست السبب فى أى منهما، فارحل إذن راضيا، فذلك الذى يطلق سراحك راض هو الأخر.(٣٤)

ولكن هل كان ماركوس أوريليوس، ذلك الإمبراطور العظيم والموجود البشرى المأساوى راضيا حقا؟ وهل الفلسفة مؤثرة حقا فى مواجه خيبة الأمل العميقة واليائسة تلك إزاء الحياة ومثل ذلك الخوف الداعى للجنون من الموت؟ إن القديس أوغسطين الذى وقع لفترة قصيرة فى الحالة الذهنية ذاتها يقول: كان بداخلى سأم عظيم من الحياة وفى الوقت ذاته خوف من الموت، وقد أحتاج إلى ملاذ أكثر قوة مما يمكن للعقل وحده أن يقدمه ولقد وجد الجواب عن الموت فى الدين الجديد الذى جاء به المسيح الذى مات وقام من بين الأموات. (٣٥)

---

٣٣ – جاك شورون: مرجع سابق، ص٨٤.

٣٤ – نفس المرجع: ص٨٧

٣٥ – نفس المرجع: ص٨٠

ولم يختلف ماركوس اوريليوس عن سينكا حيث يرى سينكا أن المنهاج الوحيد القادر على تحييد فكرة الموت الباعثة على الأسى هو منهاج الفلسفة لأنها تبين لنا أن حياة الإنسان بل وشخصيته هى متاع مؤقت، وينبغى أن يعيش كما لو كان مذينا لنفسه وعلى استعداد لإعادة المبلغ كله فى مرح لدى طلبه"

ورغم من أن الفلسفة هى المنهج الوحيد عنده إلا أنه يدرك أن طريق الفلسفة عصيب وأنه يريد أن يعرف كيف يموت دون خوف وأسى وكيف يمنع فكرة الفناء من تسميم حياته، وهو يدرك أنه ليس من السهل التمكن من هذا الفن: إنه شئ جليل وعلى المرء أن يتعلمه لفترة طويلة لكى يتمكن من الرحيل عن هذا العالم رابط الأشياء حينما تدق الساعة المحتومة، ومن لا يملك إرادة الموت لا يملك إرادة الحياة، فقد منحت لنا الحياة فحسب شريحة أن نلاقى الموت، وهى تتحرك باتجاه الموت ومن هنا فانه من الحماقة أن يرهبه المرء

ويذهب سينكا إلى القول بأن مثل هذه الشكاوى لا مبرر لها فالطول الحقيقى للحياة لا يمكن أن يقاس بالأعوام، فإذا ما بدت الحياة قصيرة فإن ذلك يرجع فحسب إلى "أننا نجعلها كذلك، فليست مواهبنا سيئة لكننا نستخدمها على نحو يبددها " فالناس يبددون حياتهم بطرق عديدة ن وهم ينفقونها فى " أحزان لا أساس لها وبهجة حمقاء ورغبة شرهة ومجتمع مهذب" ثم يدركون أن موتهم سيحل قبل الأوان، والحياة تبدو قصيرة لأن الناس يحيون كما لو كانوا سيعيشون للأبد" ولا ترد فكرة الضعف البشرى على أذهانهم ويقولون جميعا أنهم سيتقاعدون، ويستريحون يوما ما، ولكن، أى نسيان غبى للفناء ذلك الذى يتمثل فى تأجيل نصائح العقل السليم حتى الخمسينات والستينات مع النية فى بدء الحياة فى عمر لم يبلغه إلا القليلون.[٣٦]

وبالرجوع إلى ارتباط الفلسفة والموت نجد أن دعوة ماركوس دعوة للتأمل قد تبنى على الاستفهام والدهشة خاصة وهو يقول" تأمل المبادئ الصورية(الصور) للأشياء مجردة من غطائها، تأمل الغايات الخفية للأفعال، تأمل: ما هو الألم؟ وما هى

---

٣٦ – نفس المرجع: ص٧٩.

اللذة؟ وما هو الموت؟ وما هو المجد؟ ومن منا ليس هو نفسه السبب فى كربه الشخصى ؛ وليس قلقه من صنع يديه، تأمل: ليس ثمة امرؤ يعاق بغيره، وإنما كل شئ هو كما يجعله كما يجعله التفكير كذلك.(٣٧)

وقد يزيد الاستفهام مدى الارتباط بين الفلسفة والموت وهو يتسائل " وما الموت؟ إن من يتأمل الموت فى ذاته، ويعمل فيه التحليل العقلى ليجرده مما يرتبط به من دلالات سوف يخلص إلى أنه لا يعدو أن يكون وظيفة طبيعية. ومن يرتاع لوظيفة من وظائف الطبيعة فهو طفل غرير. ليس الموت وظيفة طبيعية فحسب بل إنه أيضا لخير الطبيعة وصالحها.(٣٨)

وقد يعنى هذا الارتباط بين الفلسفة والموت عند ماركوس أن الفلسفة الرواقية قد صبغت بصبغة عملية صرفة، لا تكاد تتجاوز أنواع الأعمال والقواعد المرتبطة بالأفعال التى يجب أن يقوم بها الإنسان حتى يصل إلى الحياة السعيدة، أو إلى الخلاص فى هذه الحياة، فوضعت الأخلاق فى الدرجة الأولى من التصنيف وتليها الطبيعيات ولها مقام ثانوى جدا، إن لم تكن قد أخرجت بالفعل من ميدان النظر الفلسفى الرواقى(٣٩)

لدرجة يمكن أن يقال فيها أن الرواقيون أكثروا من تشبيه الفلسفة بالأشياء المادية ليقربوها إلى أذهان العامة فظن معاصروهم أنهم هبطوا بها إلى المادية.(٤٠)

خلود الروح

لقد تأرجح رأى ماركوس أوريليوس فى مسالة خلود الروح لتأرجح الرأى الرواقى الذى يرى أن الأرواح تبقى لمدة طويلة ولكن ليس للأبد ولقد أوضح ديوجين لارتوس بأن هناك حياة فى العالم الأخر ولكنها محددة بالزمن ، وقد جاء الخلط فى

٣٧- ماركوس أوريليوس: ف١٢-٨- ص٢٤٣.

٣٨- نفس المصدر: ف٢-١٢- ص٤٩.

٣٩ – د. عبد الرحمن بدوى: خريف الفكر اليوناني، ط٥، دار القلم، بيروت،١٩٧٩، ص١٥.

٤٠ – د. حربى عباس عطيتو: اتجاهات التفكير الفلسفى عند اليونان فى العصر الهللينستى، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية،٢٠١٠، ص١٩٧

مسألة خلود الروح للتباين اللغوى بين اليونانية واللاتينية وقد اوضح رينيه هوفن هذا التباين قائلا " فنحن نجد الروح المتصفة بالبقاء الطويل πολυχρόνιος ولكن اللفظ غير مستخدم أبداء بينما نجد أن الإنسان نظرا لتكونه من جسد وروح يعتبر فان θνητός فإن الروح تعتبر خالدة ἀθάνατος حيث أنها تبقى بعد موت الكائن البشرى، وكذلك فانية φθαρτή حيث إنها تنتهى هى نفسها بالأختفاء ، ومع ذلك فعلى النقيض مع الخلود ἀθανασία بمعناه يمكن للروح أن تتصف بالفناء θνητή، مما يوشك بالفعل أن يخلق حيرة ويجعلنا نعتقد فى عدم وجود حياة فى العالم الأخر وفى مقابل الثلاث كلمات اليونانية φθαρτός . θητός،ἀθάνατος لا تمتلك اللاتينية سوى لفظين وهو فانى Mortalis وخالد Immortalis مما يجعل الغموض حتميا هنا، أما بالنسبة للفظ أبدى aeternus والذى يجب أن يطابق فى اليونانية ἀίδιος فإما أنه غير صحيح وإما أنه يجب أن يؤخذ فى نطاق معنى محدد [٤١] وقد يعنى ذلك أن ترجمة اللغة اليونانية واللاتينية هى أحد عوامل الخلط فى مسألة خلود الروح.

ودائما ما تتعلق فكرة الموت بمسألة مصير الروح بعد الموت وقد خرج ماركوس أوريليوس عن المذهب الرواقى فى مسألة خلود الروح وبدا وكأنه فيلسوفا أبيقوريا وقد ظهر ذلك فى تسائله الذى يجيب عليه فى مسألة خلود الروح وهو يقول" لعلك تسأل: إذا كانت الأرواح خالدة فكيف يمكن للهواء أن يستوعبها جميعا منذ بداية الزمان؟ حسن.. فكيف تستوعب الأرض كل تلك الأجساد التى تدفن بها منذ تلك البداية السحيقة؟ فمثلما هو الحال على الأرض، إذ تتحول الأجسام بعد مقامها على الأرض، طال أو قصر، وتتحلل فتترك مكانا لغيرها، كذلك الشأن بالنسبة للارواح المرتحلة إلى الهواء: تبقى ردحا من الزمن ثم تتغير وتندثر وتتخذ طبيعة نارية إذ يتلقاها المبدأ المولد للعالم.بذلك تترك مكانا للمقيمين اللاحقين. هذا هو الجواب عن مسألة خلود الأرواح. ينبغى ألا نقتصر على النظر إلى الأجساد التى تدفن هكذا بل

---

٤١ – رينيه هوفن : المرجع السابق، ص٤٩-٥٠

نتأمل أيضا كم من الحيوانات تؤكل كل يوم، نأكلها نحن وتأكلها المخلوقات الأخرى - مقادير ضخمة تستهلك وتدفن، بمعنى ما، فى أجساد آكليها، ومع ذلك فهناك مكان لها، لأنها تتحول إلى دم وإلى عنصرى الهواء والنار. وكيف نتحقق من صدق هذه المسألة؟ بالتمييز بين ما هو مادى وما هو صورى سببى.[٤٢] والملاحظ هنا فى النص أن ماركوس يؤمن بتحلل الأرواح كما تتحلل الأجساد، وكما قلنا من قبل أن هذه الفكرة أبيقورية صرفة، ولا غرابة فى ذلك فهذه المدارس على اختلاف مبادئها وتنوع مشاربها، تحصر الحكمة والخير الأعظم فى الأتراكسيا أى فى السكينة والطمأنينة [٤٣]. كما ان الموقف الرواقى يرى أن مصير النفس يرتبط بمصير كل شئ فى هذا العالم الطبيعى، فهى لا تفنى بعد الموت وإنما تتحول إلى شئ أخر، وتظل فى هذه التحولات فترة معينة حتى تفنى تماما عند الاحتراق الكلى. يقول ابكتيتوس " ليس هناك فناءا تاما بل تحولات بين الأشياء والموت ليس شيئا غير ذلك، فالكائن لا يتحول إلى اللاوجود بل يتغير إلى شئ آخر يحتاج العالم إليه... فإنك لم تولد عندما أردت أنت ذلك، بل عندما ظهرت حاجة العالم إلى وجودك"[٤٤] ولكن هل يسير ماركوس على هذا الضرب على طول الخط أم أن الأمر خلاف ذلك؟.

يقول ماركوس " الكون لا يخرج عن حالين اثنين: فإما إلى فوضى واضطراب وتشتت (إلى ذرات) ، وإما أنه وحدة ونظام عناية، فإذا صح الافتراض الأول فلماذا أرغب فى المكوث فى عالم مركب عشوائيا ويعانى من مثل هذا الاختلاط؟ ولماذا أعنى نفسى بشيء أخر غير تحول التراب إلى تراب؟ وفيم يخالج نفسى اضطرب؟ فالتناثر سوف يصيبنى إذن مهما فعلت. وإذا صح الافتراض الثانى أقدم إجلالى واقفا ثابتا لا أتزعزع، متوكلا على من بيده تصريف كل الأمور.[٤٥]

٤٢- ماركوس أوريليوس: التأملات، ف٤-٢١- ص٧٦.

٤٣ - د. جلال الدين سعيد: فلسفة الرواق - دراسة ومنتخبات، مركز النشر الجامعى، ١٩٩٩، ص١٤

٤٤- د. أميرة حلمى مطر: الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٤، ص٤٠٧.

٤٥- نفس المصدر: ف٦-١٠- ص١١٤.

وفى هذا النص يقر افتراضين فى مسألة خلود الروح، أما الأول وهو الافتراض الأبيقورى الذى قرره فى أكثر من موضع، وأما الافتراض الثانى وهو الاقرار بمفهوم العناية الذى لم يفرق الرواقيون بينه وبين القدر، اعنى تلك العناية التى يوليها الإله للعالم، تلك الفكرة التى اتفق فيها الرواقيون مع أفلاطون وأرسطو، وهى أن الإله يرعى الكون ويهيمن على نظام العالم، ويدبر الأشياء جميعا على مقتضى قواعد الكمال.(٤٦)

وقد يصيغ ماركوس النص السابق بلغة أكثر شمولا وهو يقول " إما أن الأمر قدر محتم ونظام لا يسمح بأى حيود. وإما عناية رحيمة وإما فوضى لا غاية لها ولا موجه، فإذا كان الأمر ضرورة لا تقهر فلماذا تقاوم؟، وإذا كان عناية تستجيب للدعاء فاجعل نفسك أهلا للعون الإلهى، وإذا كان فوضى غير محكومة فافرح بأن لديك فى مثل هذا هذه العاصفة عقلا موجها خاصا بك. وحتى إذا جرفك الطوفان فليأخذ جسدك البائس ونفسك الضئيل وكل شئ آخر، أما العقل فلن يأخذه".(٤٧) ولكن نلحظ أنه إذا كان هناك ثنائية بين الجسد والروح فى النصوص السابقة إلا إن هذا النص أن هناك شيئا أخر قد يبقى بعد انفصال الروح عن الجسد وهو العقل القيادى، وإذا هذا التقسيم الثلاثى بمعناه الحرفى قد يخرج ماركوس من معية الرواقيين. وهنا يتسائل "رينيه هوفن" هل أحتار بالفعل ماركوس أوريليوس بين مفهومين متناقضين؟ أم أنه عندما يتحدث عن التقسيم الثلاثى ، أليست هذه طريقته فى توضيحه للدور القيادى الرفيع الشأن للروح، كما يقترح تعبير مثل نصيبك هو قيادة وسيادة الروح؟ (٤٨)

والحقيقة أن "هوفن" لم يدرك أن العقل القيادى الذى يتحدث عنه ماركوس عقلا باطنيا وقد ساوى بين وجود هذا العقل ووجود الألوهية التى لم تكن إلا باطنة

---

٤٦ – د. عثمان أمين : الفلسفة الرواقية، ص١٨٩.

٤٧– ماركوس أوريليوس: ف١٢– ١٤– ص٢٤٤.

٤٨ – رينيه هوفن: الرواقية والرواقيون، ص١٥٦

هى الأخرى، وأعنى أنه لا يصح تقسيم "هوفن" وإن صح لكن التقسيم رباعيا وهو الجسد والروح والألوهة وقد صاغ لنا ماركوس نصا يدلل على هذا التفسير وهو يقول" حتى إذا ما اقترب رحيلك وقد تركت كل شئ وراء ظهرك، لايعنيك إلا عقلك الموجه والألوهة التى بداخلك، ولا تخشى من أن يحل أجلك بل من أن تكف عن الحياة وفقا للطبيعة، ستكون إذاك إنسانا جديرا بالعالم الذى أتى بك، ولن تعود غريبا فى وطنك، ولن تعود مأخوذا بالأمور اليومية كما لو كانت غير متوقعة، ولن تعود معلقا أملك على هذا أو ذاك". (٤٩)

والواقع أن ماركوس لم يبين مكان الروح بعد الموت ومدى خلودها وهو يقول " تذكر أنك بعد برهة ستكون لا شئ وفى لا مكان، وكذلك كل ما تراه الآن وكل من هو الآن حى . إنها طبيعة الأشياء جميعا أن تتغير، وأن تهلك، وأن تتحول، لكى يتاح لغيرها أن يأتى إلى الوجود على التتابع". (٥٠)

ولا يعنى فى النص السابق استكانة الإنسان وخنوعه بل يجب أن يكون مستعدا للموت ويكون هذا الاستعداد نابعا من المرء لذلك يقول ما أنبل النفس التى تكون مستعدة، إذا اقتضى الأمر، أن تفارق البدن لساعتها لكى تفنى أو تتناثر أو تبقى بعد البدن. ولكن ليكن ذلك الاستعداد نابعا من رأى المرء ذاته واقتناعه الخاص، لا من مجرد الرغبة فى المعارضة ومخالفة المألوف، كما هو شأن المسيحيين، ليكن استعدادا متعقلا جادا صادقت طبيعيا خاليا من التصنع والمسرحة.(٥١) ويدعو ماركوس لتأمل حال المرء بعد الموت وخلو الإنسان من الرغبة "تفكر كيف حال المرء، جسدا وروحا، بعد أن يدركه الموت، وتأمل قصر الحياة، وفى الهوة السحيقة للزمان الماضى والمستقبل، وفى هوان كل شئ مادى". (٥٢)

---

٤٩ – ماركوس أوريليوس: ف١٢-١- ص٢٣٩.

٥٠– نفس المصدر: ف١٢-٢١- ص٢٤٦.

٥١ – نفس المصدر: ف١١-٣- ص٢٢٠.

٥٢– نفس المصدر: ف١٢-٧- ص٢٤٣.

وقد اختلف موقف ماركوس عن شيشرون حيث يرى شيشرون أن مصير الروح بعد الموت ليس هو الفناء الذى يمحو ويدمر كل شئ، وإنما هو نوع من الهجرة، هو مرحلة تحول للحياة: يقود الرجال والنساء المشهورين للسماء أما الأرواح الأخرى تظل في الأرض(٥٣).

وقد نظر سينكا إلى الجسم والنفس باعتبار أن كلا منهما معارض للأخر، وميز فى النفس بين الجانب العقلى واللاعقلى، واعتبر ابكتيتوس النفس حاملة للوجوس الإلهى أما أوريليوس فيعيد اكتشاف النوس أى الجانب الروحى الخالص القادر وحده على المعرفة الحقة والمتحررة كلية من الجسم،" أيا كان ما أنا عليه فإنه قليل من اللحم والتنفس والجزء الحاكم" ويقول مرة أخرى: أن الأشياء التى تتألف منها أنت ثلاثة : قليل من الجسم، قليل من التنفس (حياة) وعقل، ومن هذه الأشياء يعد الأولان ملكا لك طالما انه من واجبك العناية بهما، لكن الثالث وحده ملكك على الوجه الصحيح

ولكن ماركوس أوريليوس الذى يتبع أرسطو فى ذلك لا يمضى إلى حد الاعتقاد حتى بخلود هذا الجزء العاقل من النفس، ويتسائل المرء ما إذا كانت هيمنة فناء كافة الأشياء عليه ستسمح لمثل هذا الاعتقاد بأن يسيطر أو أن يكون عونا حقيقيا فى كبح جماح انشغاله الدائم بالفناء

أما فيما يتعلق بأبكتيتوس وماركوس أوريليوس فقد أظهر فكرهما بالنسبة للحياة في العالم الأخر وعودة " المادة- الروح" مرة ثانية إلى العناصر من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه اظهر أيضا تحير كل منهما فى مسالة الخلود الفردى للروح الإنسانية، لكنهما اعتقدا أنه يجب ان يتحكم كل إنسان فى أعماله وأفكاره، وأنه بالفعل ممثل فى مسرحية ومخرج هذه المسرحية هو الله نفسه، حيث يحدد دورا لكل بطل، والذى يجب أن يؤديه بأمانة وإخلاص لكن فيما يبدو أن أوريليوس كان مهتما بالمسألة. أكثر بكثير من إبكتيتوس لكن يبدو أنه لم يرغب فى ان يتخذ موقفا محدد:

---

٥٣ – رينيه هوفن: المرجع السابق، ص٢٣.

فهو لم يؤكد أبدا على الإيمان " بحياة – فى العالم الأخر" بدون تحفظات، وذلك راجع إلى أنه: إما أنه يتردد بين احتمالين أو ثلاثة، وإما أنه يميل إلى نفى كل حياة فى العالم الأخر فردية. ومع ذلك فإنه يقر بحياة فى العالم الأخر محددة بالزمن فيما فوق الأرض، أى افتراض متوافق مع الرواقية الأرثوذكسية. (٥٤)

فإنه يرغب فى الإيمان بخلود النفس، وهو يدرك أن " الثقاة العظام..... وعدوا بمثل هذه الهبة أكثر مما برهنوا على وجودها" لكنه لا يرغب فى التخلى عما يدعوه الحلم الخلاب، وهو يبعد عن التراث الرواقى ويتابع أفلاطون، فيتحدث عن النفس باعتبارها " سجينة هذا المقر المظلم الكئيب" أى الجسد، وحجته الرئيسية للتدليل على خلودها هى عظمة العقل البشرى، فيقول:" شئ عظيم ونبيل هو العقل البشرى ..... أن موطنه هو ذلك النطاق بأسره الذى يضم الذرا والمنحدرات الكائنة تحت السماء. تلك القبة التى يمتد تحتها البحر والبر وفى إطارها يفصل الأثير ما هو بشرى عما هو إلهى ويلحقهما أحدهما بالأخر...." (٥٥)

٥٤- رينيه هوفن: الرواقية والرواقيون، ص٢٢.

٥٥- جاك شورون: الموت فى الفكر الغربى، ص٨٠.

الخاتمة

يمكن أن نستنتج بعض النتائج التى توصلت إليها الدراسة وهى على النحو الأتى:

أولاً: بينت الدراسة أن الرواقية ليست دعوة للانتحار حيث تصورت الموت على أنه من الأمور الوسطى التى لا هى خيرة ولا شريرة فى ذاتها، وهو من الأشياء غير المهمة، والانتحار مشروع فى حالة تقبل العقل، وقد كان الرواقيون فى وضع أفضل من الأبيقوريين فى مواجهة الخوف من الموت، وذلك لإيمان الفكر الرواقى بالعود الأبدى فى مقابل اللاعودة، أعنى نهاية حياة الكائنات الحية إلى ذرات عند الأبيقوريين.

ثانيا: تأثر ماركوس أوريليوس بالفلسفة الفيثاغورية والأفلاطونية حين رأى أن الموت انعتاق من استجابة الحواس والرغبة، وقد أعلن ماركوس أن الموت يتساوى مع الميلاد، والإنسان جزء من الطبيعة التى ينبغى أن يعيش فى توافق معها، ويعنى ذلك أن الموت سرا من أسرار الطبيعة وهو ليس مضادا لها، وليست نهاية الإنسان عيبا، ولا هى ضد الصالح العام. وقد استطرد ماركوس فى سرد النصوص التى توضح أن الموت لا يستثنى أحد ولا يفرق بين الإسكندر وسائس بغاله، وهو يصف الحياة والموت بأنهما سيان، فاللحظة واحدة للجميع، والفقدان هو فقدان لحظة لا أكثر، وأن الأشياء هى ما هى منذ الأزل تبدأ وتعود دواليك، وأن ما يُسلب من المعمر هو ما يُسلب من أقصر الناس عمرا، فليس غير اللحظة الحاضرة ما يمكن أن يُسلب من الإنسان، والأذى لا يكمن فى الموت بل فى العقل الذى يفكر فيه.

ثالثا: ربط ماركوس أوريليوس بين الفلسفة والموت، ورأى أن الفلسفة ليست سعيا وراء المعرفة بقدر ما هى قدرة على النظر للحياة والموت بشكل فلسفى، وعلى الإنسان أن يتأمل ويتقبل مصيره، ولم يختلف ماركوس أوريليوس عن ابكتيتوس وسينكا فى أن المنهج الوحيد القادر على تحييد فكرة الموت الباعثة على الأسى

هو منهاج الفلسفة التى تبين بالتأمل أن حياة الإنسان متاع مؤقت وزائل، وطالما أنها الطريق الوحيد فهى طريق صعب.

رابعا: تأرجح موقف ماركوس أوريليوس حول مسألة خلود الروح بين الموقف الرواقى الذى ينتمى إليه والمذهب الأبيقورى المعاصر له، وهو يرى أن الأرواح إما إلى تشتت وفوضى أو عناية رحيمة، وقد ذكر "هوفن" أن ماركوس تردد بين الثنائى (الروح والجسد) والثلاثى (الروح والجسد والعقل القيادى)، ولكن حقيقة الأمر أن ماركوس تحدث عن العقل القيادى وهو يصفه للإنسان كالألوهية، وإن جاز موقف "هوفن" لجاز هذا التقسيم الرباعى وهو الجسد والروح والعقل القيادى والألوهية.ناهيك عن أن الموقف الرواقى يرى أن النفس لا تفنى إلا بعد الاحتراق الكلى بعد أن تمر ببعض التحولات.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا المصادر المترجمة إلى العربية:

1 – أوريليوس (ماركوس): التأملات، ترجمة د. عادل مصطفى، مراجعة د. أحمد عتمان، دار رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.

ثانياً: المراجع العربية:

١– أبو ريان(د. محمد على): تاريخ الفكر الفلسفى، أرسطو والمدارس المتأخرة، الجزء الثانى، الطبعة الأولى، دار لمعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩٩.

٢– أمين (د. عثمان): الفلسفة الرواقية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١.

٣– بدوى (د. عبد الرحمن): خريف الفكر اليوناني، ط٥، دار القلم، بيروت،١٩٧٩.

٤– سعيد(د. جلال الدين): فلسفة الرواق – دراسة ومنتخبات، مركز النشر الجامعى، ١٩٩٩.

٥– عبد الرحمن (د. عبد العال): دراسات فى الفكر الفلسفى والأخلاقى عند فلاسفة اليونان،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٤.

٦– عطيتو(د. حربى عباس): اتجاهات التفكير الفلسفى عند اليونان فى العصر الهللينستى، ، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية،٢٠١٠

٧– كرم (أ.يوسف): تاريخ الفلسفة اليونانية، الطبعة الخامسة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.

٨– مطر (د. أميرة حلمى): الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٤.